يعقوب وعيسو

يبرز أيضًا في ساحة الند بالند، كأخوة وأشقاء بجانب قابيل وهابيل، ابني آدم عليه السلام، يعقوب وعيسو ابني إسحاق، ابن خليل الله وأبو الأنبياء إبراهيم عليهما السلام.

كان نبي الله إسحاق قد تزوج من "رفقة"، وبعد فترة زواج طويلة قاربت العشرين عامًا بلا أي أطفال، رزقهما الله بيعقوب وعيسو كتوأمين.

عندما كانت رفقة حاملًا بهما، كان الطفلان يتصارعان مع بعضهما داخل رحمها، ما أثار خوفها من هذه الحركة الغريبة، فسألت "رفقة" الله عن سبب تلك الحركة، بعدها عرفت أنها حامل بطفلين وأنهما سيؤسسان أمتين مختلفتين، ويكونان دائمًا في تنافس -وفي حقيقة الأمر فإن الأخ الأكبر سيخدم الأخ الأصغر- لم تخبر رفقة زوجها إسحاق بذلك الأمر، بل احتفظت بذلك في قلبها.

كان عيسو أول من ولد، ثم ولد أخوه يعقوب بعده مباشرة، وكان يمسك بكعب قدم عيسو، ولذلك سمي يعقوب، أي (الكعب) المشتق من الكلمة العبرية " עקב".. فضَّل إسحاق عيسو، والذي كان صيادًا ماهرًا ولكن الأم فضَّلت يعقوب، والذي كان هادئ الطباع ويسكن الخيام.

خلال فترة شباب عيسو ويعقوب، تمت تربيتهما في نفس البيئة، وتعرَّضا لنفس الحياة التي تعرض لها من قبل أبوهما إسحاق وجدهما إبراهيم.. وفي يومٍ من الأيام، عاد عيسو من الحقل وكان جائعًا للغاية، فانتهز يعقوب هذا الموقف وعرض على عيسو صحنًا من الحساء، مقابل أن يبيعه عيسو حق بكوريته -كونه الأخ الأكبر- وافق عيسو على

عرض يعقوب وقال: "إني سأموت فما نفع البكورية لي؟". وأصبح يعقوب منذ تلك اللحظة هو صاحب الحق في البكورية.

وفي الحقيقة فإن تنازل عيسو عن بكوريته يدل على ازدرائه للتقاليد التي كانت لدى أبيه إسحاق، والبكورية كانت تعطي لصاحبها مرتبةً عليا في العائلة وقيمةً مضاعفة من الإرث. وأهم ما في موضوع البكورية هو البركة الإبراهيمية. وبناءً على هذا الأمر، كان عيسو الابن الأكبر لإسحاق، هو الذي سيرث النبوة وكل الامتيازات الأخرى، ولكنه تنازل عن حقه لأخيه يعقوب، قبل أن تكمل والدته الأمر.

كانت "رفقة" قد خططت لتجعل ولدها يعقوب المقرَّب والمحبب لها، يستولي على هذا اللقب. فانتهزت فرصة أن خروج عيسو ليحضر الطعام إلى أبيه المكفوف في أحد الأيام، ثم نفذت خطتها الماكرة.

كان إسحاق والد يعقوب كبيرًا في السن، وقد أصيب بالعمى، فلما قرر أن يبارك ابنه الأكبر عيسو قبل أن يموت، أمره أن يذهب إلى البرية ليصطاد له صيدًا ويحضره له طعامًا، قبل أن يأخذ البركة. فسمعت رفقة حديثهما، فأرشدت ابنها يعقوب بأن يصطاد لها نعجتين، لتحضِّر وجبةً شهيةً لأبيه فيستلم بذلك البركة من أبيه بدلًا من أخيه عيسو. ولكن يعقوب تردد وأصابه القلق من أن يلمس أبوه جلده فيتعرف عليه؛ لأن عيسو كان شخصًا خشنًا كثيف الشعر، ويعقوب كان أملسًا وخفيف الشعر، فيجلب بذلك على نفسه اللعنة بدلًا من البركة. فطمأنت رفقة ولدها يعقوب وامرأته بأن يضع جلد نعجة حول رقبته ويديه، ليعطيه الملمس الخشن والشعر الكثيف.

ذهب يعقوب إلى خيمة أبيه متنكرًا بجلد النعجة، كما أخبرته والدته، فتفاجأ إسحاق من سرعة عيسو في الصيد وارتاب في الأمر فسأله بشك: "من أنت يا بني؟".. فأجابه يعقوب: "أنا عيسو ابنك

البكر"، وكان إسحاق لا يزال متشككًا في الأمر، فطلب منه أن يضع يده عليه لكي يتأكد، لأن عيسو كان مشعرًا، وقد بدا أن جلد النعاج الذي وضعه يعقوب عليه قد خدع إسحاق ولكنه قال: "إن الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يد عيسو". وعلى الرغم من حالة الشك التي كانت تغمر إسحاق، فقد قام بمباركة يعقوب في النهاية.

ما أن غادر يعقوب الخيمة، وصل عيسو واكتشف الخدعة التي نفذها توأمه بمعاونة والدته، كان إسحاق متفاجئًا وتأكد بأنه قد بارك يعقوب، وقد أشفق إسحاق على عيسو فأعطاه بركةً أقل، فقال عيسو في ثورةٍ وهياجٍ شديدين بأنه سيقتل يعقوب ويسفك دمه.

علمت رفقة بنوايا عيسو للانتقام من يعقوب، فأمرت يعقوب بالهرب إلى بيت أخيها لابان، حتى يهدأ غضب عيسو، كان هناك غرضان لرحلة يعقوب، وهما الهرب من عيسو، وإيجاد زوجة له؛ لأن لخاله لابان ابنتين ليئة وراحيل، في الطريق إلى حاران رأى يعقوب رؤيةً من السماء، حيث رأى سلمًا يصل إلى السماء وملائكةً يصعدون وسميت الرؤية بسلم يعقوب، من أعلى السلم سمع صوت الله الذي كرر العديد من البركات عليه، استيقظ يعقوب في الصباح وأكمل طريقه إلى حاران.

توقف يعقوب عند بئر، حيث يسقي الرعاة ماشيتهم، وهناك قابل الابنة الصغرى لخاله لابان، وهي راحيل ووقع في حبها على الفور، وبعد أن مكث شهرًا عندهم، طلب يدها للزواج، مقابل أن يعمل سبع سنوات لدى خاله كمهرٍ لراحيل.

بدت السبع سنوات كأنها أيام معدودة لشدة حبه لها، لكن عندما انقضت هذه السنين خدع لابان يعقوب وأبدل "ليئة" بـ "راحيل"، ولم يعرفها يعقوب لأنها لبست خمارًا على وجهها.. في الصباح عندما عرف

يعقوب ذهب إلى خاله، ولكن لابان برر فعلته بأنه يجب أن تتزوج البنت الكبرى أولًا في بلادهم، ومع ذلك وافق يعقوب أن يعمل سبع سنوات أخرى ليأخذ راحيل، فتزوج يعقوب براحيل بعد أسبوع من زواجه من ليئة، وأكمل السبع سنوات الأخرى، أحب يعقوب راحيل أكثر من أي شيء في العالم وبدأ يفضلها على ليئة، وبذلك شعرت ليئة بالكراهية الشديدة ناحية يعقوب وراحيل.

بارك الله رحم ليئة، فولدت ستة أولاد هم: روبين وشمعون ولاوي ويهودا وزبولون ويساكر، وبنتا واحدة اسمها دينا، بينما كانت راحيل عاقرًا، فأعطت جاريتها بيلها كزوجة ليعقوب، فدخل عليها وولدت له دان ونفتالي.

رأت ليئة بأنها توقفت عن الولادة، فأعطت يعقوب جاريتها زيلفا، فولدت له ابنًا اسمه جاد، وآخر اسمه آشير.. وبعد فترة من الزمن أكرم الله راحيل، فولدت يوسف وبنيامين.

عندما ولد يوسف، أراد يعقوب أن يزور بيت أبيه، ولكن لابان كان مترددًا من أن يدعه؛ لأن الله بارك ماشيته بسبب يعقوب، عرض لابان أن يدفع ليعقوب، ولكن يعقوب قام باتفاقٍ غريبٍ مع لابان، حيث اقترح عليه أن يزيل كل النعاج المنقطة البُنية، وما يولد منهم يكون ليعقوب، فجعل يعقوب النعاج الحوامل أن ينظروا على النعاج المنقطة، فيتوحموا ويلدوا نعاجًا منقطة، بذلك أصبح يعقوب غنيًا.. بعد ذلك رأى بنو لابان بأن يعقوب أصبح يملك أحسن الماشية، فتغيرت نظرة لابان له.

أراد يعقوب أن يرحل ويأخذ زوجاته وأطفاله من دون أن يعلم لابان، وقبل أن يرحلوا، سرقت راحيل تماثيل من بيت لابان، وعندما علم غضب وقام بملاحقة يعقوب لسبعة أيام، في الليلة التي سبقت

إمساك لابان ليعقوب، ظهر الله للابان في حلمٍ وحذره من أن يقول أي شيء ليعقوب.. عندما تقابل يعقوب ولابان، أدى لابان دور الحمى المجروح وطالب بإرجاع التماثيل دون أن يعلم يعقوب بأن راحيل أخذت التماثيل، قال للابان إن من أخذها يجب أن يموت، وعرض عليه أن يفتش أغراضهم، عندما دخل لابان خيمة راحيل قامت راحيل بتخبئة التماثيل، فلم يرها لابان، فمضى كل واحد في طريقه.

في طريقه إلى كنعان، سمع يعقوب من رسله، أن أخيه عيسو قادم إليه ومعه أربعمائة رجل، وهو عازم على الانتقام منه، فخاف يعقوب كثيرًا من انتقام أخيه، قسَّم يعقوب جيشه إلى نصفين لكي ينجو نصف الجيش على الأقل في حال هجوم عيسو على نصفه الآخر، ثم دعا يعقوب رب العالمين أن ينجيه من بطش أخيه عيسو، وقد جهز هدايا كثيرة لكي يستعطفه بها مكونةً من مائتي عنزة، عشرين تيسا وعشرين كبشا وثلاثين ناقة مرضعة وأولادها وأربعين بقرة وعشر ثيران وعشر حمير، وأمر يعقوب أتباعه أن يقسموا هداياه قطيعًا قطيعًا، كل قطيع يقوده نفرٌ من أتباعه، وأن يجعلوا فسحة بين قطيع وقطيع، وأمر كل نفر من أتباعه إذا صادفهم عيسو وسألهم أن يجيبوه بأنها هدايا من عبدك يعقوب إلى سيده عيسو، وأن يقولوا له بأن عبدك يعقوب هو وراءنا يستعطف وجهك بهذه الهدية السائرة أمامه، وينظروا إلى وجهه عسى أن يرفع وجهه، فاجتازت الهدية قدامه وأما هو فبات تلك الليلة في المحلة.

عبر يعقوب الأرض التي سماها فنوئيل، وأمامه رأى عيسو أخوه مقبلًا إليه ومعه الأربعمائة رجل، فأمر زوجتيه ليئة وراحيل وجارتيه وأبناءه من كل واحدة منهن، أن يصطفوا ورائه، فسجد يعقوب إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه، فركض إليه عيسو وعانقه ووقع على عنقه وقبله وبكيا، ثم تقدمت كل زوجة وجارية هي وأبنائها

وسجدت كل واحدة منهن لعيسو، فسأل عيسو يعقوب عن جنوده الذين يحملون الهدايا، فقال له يعقوب: "لأجد نعمة في عيني سيدي".. رأى عيسو أن الهدايا كثيرة، فرفض أن يأخذها، فألحَّ عليه يعقوب حتى أخذها وأخبره أنه رأى وجهه من قبل، وأراده أن يكون راضيًا عنه، اصطلح الأخان بعد فترة طويلة من الجفاء، قبل أن يرحلا بعدها، فعاد عيسو إلى سعير، أما يعقوب فارتحل إلى سكوت.

بعدما ودَّع يعقوب أخاه عيسو وذهب كل واحد منهما إلى سبيله، ارتحل يعقوب إلى مكان دعا اسمه سكوت، أقام فيه وبنى لنفسه بيتًا، وصنع لمواشيه وبهائمه مظلات، وبعدها شد رحاله إلى مدينة شكيم، قرب كنعان، وعندما وصل حدود كنعان، كانت راحيل زوجته على وشك الولادة، فولدت الابن الأصغر ليعقوب الذي هو بنيامين، وماتت، بعدها قام يعقوب بدفنها، وشيد صرحًا لقبرها الذي يقع خارج بيت لحم ولا يزال قبرها مزارًا ليومنا هذا.

وأخيرًا وصل يعقوب إلى بيت أبيه إسحاق ومكث معه قليلًا، قبل أن يتوفى إسحاق وعمره مائة وثمانون من السنوات، فدفنه يعقوب وعيسو في مغارة في حقل المكفيلة، وافترق الأخان النِدَّان منذ هذه اللحظة، وإلى الا بدَّ.

من المؤكد أن هذه القصة لم تذكر في القرآن الكريم، بل ذكرت كاملةً كما قدَّمتها لكم بين صفحات العهد القديم، ولكن على الرغم من كل شيء قد يكون غير منطقي، فإن يعقوب وعيسو كانا بالفعل مثال الند بالند، لذا وجب ذكر قصتهم.